الفصل الاول

دراسة في تسمية الامبراطورية

ان تسمية هذه الامبراطورية بـ « الامبراطورية البيزنطينية » ماهو في الواقع الا تسمية كان قد اطلقها بعض المؤرخين من امثال المؤرخ بينز ورانسيمان، وفازيليف وغيرهم. وهذه التسمية لها مايبررها فكلمة بيزنطة Byzantium مرجعها الى ان الامبراطور قسطنطين عندما شيد عاصمته الجديدة القسطنطينية، بناها على انقاض مدينة قديمة تدعى بيزنطة. اسسها بيزاس Byzas قائد الجماعة اليونانية التي هاجرت من مدينة ميجارا Megara في القرن السابع ق. م وعرفت باسمه (١).

وهناك مسميات اخرى لهذه الامبراطورية لابد من الاشارة اليها والتعريف بها. فهي تعرف بالامبراطورية الرومانية الشرقية او الامبراطورية الرومانية المتأخرة،

---

(1) Vasiliev, A, History of the Byzantine Empire, Vol.1, (Wisconsin, 1973) p.57, Baynes and Moss, Byzantium An Introdnction to East Roman Civilization, (Oxford. 1962), p.16, Heichelheim, History of the Roman people, (America, 1962), p.434
Runciman, S. Byzantine Civilization (London, 1975), p. 11

ويحدد رانسيمان سنة ٦٥٧ ق. م تأريخ بناء بيزنطة.

والسبب في ذلك على مايبدو هو ان بعض المؤرخين (٢) وعلى راسهم جيبون Gibbon يرون ان تاريخ الامبراطورية البيزنطينية ماهو الا مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الامبراطورية الرومانية. ولعل مادفع هؤلاء الى الاخذ بهذه الفكرة هو ان الحكام البيزنطينيين كانوا يعتبرون انفسهم اباطرة الرومان. وانهم خلفاء للقياصرة الرومان القدامى. كما ان علاقاتهم بجيرانهم من الشعوب تقوم على هذا المفهوم. فالعرب قبل الاسلام وبعده، عرفوا البيزنطينيين باسم الروم وعرفوا حاكم هذه الامبراطورية باسم اميراطور الروم.

والمتصفح للنصوص العربية يجد هذا واضحاً، فقد ورد في القرآن الكريم سورة باسم سورة الروم ثم جاء ذلك في قوله تعالى ... « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون (٣)...

ان تحليل انتشار تسمية الامبراطورية « بالرومانية » ان البيزنطينيين كانو يعتبرون انفسهم بانهم ينحدرون من اصل روماني. كما ان الامبراطور البيزنطي كان يعتبر نفسه حاكماً رومانياً وخليفة القياصرة الرومان (٤) وظلت تقاليد الحكومة الرومانية تسيطر على افكار الاباطرة السياسية حتى نهاية عصر الامبراطورية. ومن ذلك ماطلبه الامبراطور الكسيوس كومنين Alexius Comnenus ١٠٨١ — ١١١٨ م من قواد الحملة الصليبية الاولى بان يقسموا له يمين الولاء والطاعة وعليهم ان يردوا جميع الاراضي التي كانت تابعة للامبراطورية قبل ان يسمح لهم بالعبور الى آسيا الصغرى في طريقهم الى الشام (٥).

كما ان الامبراطور مانويل Manuel ١١٤٣ — ١١٨٠ م عندما تحالف مع الصليبين لغز ومصر عام ١١٦٩ م كان يرى ان مصر كانت تابعة للامبراطورية الرومانية وعليها ان تعود مرة اخرى الى حظيرة الامبراطورية (٦).

---

(2) Gibbon, E, The decline and fall of the Roman Empire, (Penguin books), p.632. Bury, J.B, History of the Later Roman Empire, (London, 1923), History of the Eastern Roman Empire, (London, 1912), Heichelheim, Op. Cit; p. 437, Previte-Orton, The Shorter Cambridge Medieval History, (Oxford, 1978), Vol. 1, p.1.

(٣) القرآن الكريم — سورة الروم — الاية ٢ .

(4) Baynes and Moss, Op, Cit, pp. 34, 268.

(5) Vasiliev, Op. Cit, Vol-2, p.408, Yewdale, R. B. Bohemond I, prince of Antioch, (Prinecton, 1924), p. 44, Baynes and Moss, Op. Cit, p.30

(6) Finlay, G, History of the Byzantine and Greek Empires, (Landon, n.d), p.229.

ان هذه المسميات في الواقع لها لاما يبررها ، فالامبراطورية الرومانية على عهد الرومان القدامى كانت مساحتها تشمل كل انحاء اوربا والجزرا لبريطانية ، اضافة الى آسيا الصغرى والشام ومصر والساحل الافريقي حتى المحيط ، وكانت عاصمتها مدينة روما وعندما اعترف الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ ــ ٣٣٧ م) بالديانة المسيحية كدين في الامبراطورية عام ٣١٢ ونقل العاصمة من روما الى المدينة الجديدة التي بناها وسميت باسمه وهي القسطنطينية عام ٣٣٠ م ، بدأت الامبراطورية تتأثر بالحضارة الشرقية ، يضاف الى ذلك انه لما تعذر حكم الامبراطورية مركزياً من القسطنطينية والقسم الغربي وعاصمته روما ، وعندما انهالت جحافل البرابرة الجرمان على الجانب الغربي وسقطت روما في عام ٤٧٦ م وتقطع اوصال هذا الجانب الغربي ، بقي الجانب الشرقي على حاله تقريباً حتى سقطت القسطنطينية على يد الاتراك العثمانيين عام ١٤٥٣ م وهذا مادفع بعض المؤرخين الى تسمية الامبراطورية البيزنطينية بالامبراطورية الرومانية الشرقية أو المتأخرة .

وهناك من المؤرخين من يسمي الامبراطورية البيزنطينية بـ « الامبراطورية الاغريقية او الامبراطورية الهلنستية » وينعتون حاكمها بـ « الامبراطور اليوناني » (٧) ويعللون ذلك بان الامبراطورية البيزنطينية كانت امتداداً للحضارة الاغريقية القديمة . واذا اخذنا بوجهة النظر هذه . فاين تكون الحضارة الرومانية التي تأثرت بها الامبراطورية البيزنطينية في الاقل طيلة فترة القرون الاربعة الاولى من عمرها . اضف الى ذلك ان شعب الامبراطورية لم يكن اغريقيا او يونانيا فقط حتى يتسمى الامبراطور البيزنطي بالامبراطور اليوناني ، بل كان اليونانيون يمثلون جانباً محدوداً من شعب الامبراطورية . وعليه فان هذه التسمية غير مقبولة تماماً .

ان جوهر هذه التفسيرات المختلفة يكمن في طبيعة العناصر الرئيسة التي دخلت في تكوين التاريخ البيزنطي . وهذه العناصر هي مبادىء الرومان ومفاهيمهم السياسية ، والحضارة اليونانية الهلينستيه ، والديانة المسيحية . وان اقتران الحضارة الهلينستية بالديانة المسيحية في نطاق الامبراطورية الرومانية قد ادى الى قيام مايسمى بالامبراطورية البيزنطينية (٨) .

(7) Finlay, G. History of Greece, (Oxgord, 1877), Heich elheim, Op-Cit, p.438,
انظر كذلك زيدان ، جرجي ، خلاصة تاريخ اليونان والرومان ــ مصر ــ ١٨٩٧ م ص ٤٩ ، ويلز ، معالم تاريخ الانسانية ، (القاهرة ــ ١٩٤٨ م ترجمة ــ عبد العزيز جاويد) ، ص ٥٣٨ .

(8) Baynes and Moss, Op. Cit, p.3.

ونحن امام هذه الاختلافات في المسميات والتعريفات، كان لابد لنا نختار اسماً يليق بها. والواقع هو ان اسم الامبراطورية البيزنطينية هو انسب التسمي لهذه الامبراطورية. ورغم ان هذه التسمية لم تكن تعرف من قبل الا انها تجدد ك امبراطورية لها مساحتها الجغرافية وتقاليدها وحضارتها على العكس من المسميا الاخرى التي يتداخل مفهومها مع مفاهيم اخرى.

اما عن بداية تاريخ الدولة البيزنطينية (٩). فالواقع يمكن القول ان ثلا القرون التي تبدأ من القرن الرابع الميلادي، وماحدث خلالها من تطورات على الصع السياسي والحضاري، تعتبر فترة انتقال الامبراطورية الرومانية الى الامبراطو البيزنطينية. فان نقل العاصمة من روما الى القسطنطينية والاعتراف بالدي المسيحية، وطالما ان الامبراطور قسطنطين هو الذي بنى العاصمة الجديدة، و الذي اعترف بالديانة المسيحية، فان المرحلة الانتقالية لتاريخ الامبراطورية البيزنطي تبدأ بعصر قسطنطين المعروف بأسم قسطنطين العظيم.

---

(٩) حول هذا الموضوع راجع اليوسف، د. عبدالقادر احمد، الامبراطورية البيزنطينية ـــ (بيروت ١٩٦٦ م)، ص ٧ ـــ ص ١١.